في سرِّ إقبال بدايات القرن على كمال جنبلاط

الطريق الثالث وديناميّة اللاعنف

شبلي ملّاط

كتب في الأشهر القليلة الماضية، جميعها مخصص لكمال جنبلاط، وبلغات ثلاث تربط الشرق بالغرب، من روسية وفرنسية وعربية، في
ساؤل عن حيّز الآفاق الدولية التي يرسمها، بعد ربع قرن من الصمت، هذا التضافر الغريب بين هذه الكتب حول شخصية معينة والاهتـ
ر المتعطش، والذي قد لا يكون مسبوقاً في سيرة المفكرين السياسيين، أو أهل السياسة المفكرين، ما عدا أعظم أعلامهم: ماركس

يكن مطنباً، وقد تبعت
ط الكبرى منذ ما يقارب
نها على مستوى رفيع،
سنة محاضرات شتى
ما أن الطبعات المتتالية
ل جنبلاط تنفد باستمرار،
كتوب من ترحاب في
لمثقفة، ودائماً تُذكر هذه
جريدة "النهار" تستغيث
"بركم اقرأوا كمال

يدة التي أعدتها الباحثة
ك سنة ١٩٩٤ قد لقيت
ء في طبعتها العربية، إلا
كل جلّ موضوعنا، وهو
يف عن "دار النهار"، قد
ل المعهودة، وقد نفدت
ع وجيزة (والطبعة الخامسة
مطروح يتعدى الحرف الى
ن يفتقده جبل سئم رتابة
سات لبنان والعالم العربي؛
قادر على تأمين بعض ما
ى المطلوب، والتقى، بل
ط، لأن سيرته وفكره باتا
.inco

كما دأبنا في السنوات
كري الذي يتحلى به بحث
والفلسفي والسياسي، الا
ة عارضة لمؤلف شوقي أبو
لاط والوظيفة الإجتماعية
بالسعة العميقة للمفاهيم
لشاب بتراث كمال جنبلاط
ها مقطعاً طويلاً يجسد،
عانيه، الآفاق الدولية التي
ر نصوصها، رحلةً كمال

الواسع، وأبحاثه الدائبة،
ءاته الكثيرة والمتنوعة، هي
طرق التي سلكها، في
قدم الاجتماعي، ولبناء
اخذنا في استخدام فكرة
فاعلات المبادىء والأسس
ع السياسية والاجتماعية، لن
الى الفلسفة السلوكية
ة؛ لأن الإشارات الدالة على
ها واختلاط صورها في
يق مسيرتنا، أو تجعلنا ندور
سات النظرية، التي تنطوي
سّة للبناء الفلسفي؛ ففي
ثلاً، لا يخرج جنبلاط عن
هاونين، ولو كان ذلك على
ظير، كما أن مفهوم النضال
ة حادّة في آلامها، ومبرّحة
عاد إنتاج الخلاص الإنساني
اسة، على حساب الذين
وع والمرض والجهل، وعلى
ر مستقرة في الفلسفة
ط، بين الإغريق، والهنادكة،
وفة المسلمين، حتى لكأنه
ل عنوان ملمح من الأفكار

والمفاهيم، التي لا يمكن استيعابها في إطار من المقولات العقلية وحدها، وهي المبرّرة بتجاوزية الفكر الى التحققات الصوفية، أو اليوغية، أو الصيرورة، وهي المندغمة في الحدس التأملي، قديمه وحديثه، في الفلسفتين: الشرقية والغربية؛ إلا أنها، وبالرغم من ذلك كله، تتصف بتماسك ظاهر في العناصر العقلية، التي تربط بين النقاط والعناوين من جهة، ومقاطع النصوص وهياكلها من جهة أخرى؛ لكنما الإشكالية تتسع، إذا ما لوحظت ملاءمة المفاهيم للوقائع، وهي تنزلق في أكثر من اتجاه، وكأن لا إمكان لتلبيسها إلا بحذق يختص به المعلم وحده دون التلامذة، والذي لا بفاجيء المتفرج، باعتباره أن الدعوة الى اللاتقليد، هي مرتكز السلوك التقدمي، إنها فلسفة تحتاج الى تكرار النموذج الكمالي غير المتكرر، أو هي تحتاج للافلسفة سلوكية تفهمها، بأداء سياسي متحرر، فيه من الخطورة، بقدر ما فيه من الأمل الواعد. حاجة الفلسفة هذه، الى تكرار النموذج الكمالي غير المتكرر تحكم عليها بتوقف وظيفتها الاجتماعية عند اللحظة التي يتوقف فيها المراس السياسي للشخص المؤسس للمدرسة السياسية التقدمية في لبنان؛ لكن الشخص المؤسس قد تجاوز الفكر ذاته، وتجاوز الفكرانية -in tellectualisme الى مراقي الحكم، حيث عاش في عفوية جدلية، وقضى أضحية السلوك المتمرد على مألوفات اللغة المعيوشة؛ إذاً، نحن أمام لغة صعبة ..." (ص ٢٦٣-٢٦٤).

هذا نص صعب فعلاً، لأنه نص فلسفي متين، مستوحى من تراث أثبت في هذا الكتاب، كما كان قد أوحاه عددٌ من الكتب السابقة بقلم عفيف فرّاج، ونبيل هادي، وخليل أحمد خليل، ما نحن في صدده من فكر قابل للتأويل، و"ضرورة التأويل" تشكّل الميزة العظمى للفكر الذي يستحق الخلود، وقد عُرف باختصاص حديث في الفلسفة الألمانية المعاصرة بهذا العنوان بالذات، الـ Deutungsbedürftigkeit

كمال جنبلاط الرجل والاسطورة
إيغور تيموفييف
دار النهار للنشر، الطبعة الرابعة
بيروت، ٢٠٠١.

فلا بأس من تطوير هذه "الرواية الكمالية"، كما يسمّيها شوقي أبو لطيف، بما جاء بلسان صديقنا الأستاذ فارس ساسين عن ضرورة كتب أخرى تخصص لفكر كمال جنبلاط، وقد يكون تشكيل "المدرسة الجنبلاطية" قد بدأ في الفلسفة.

لن نتحدث مطولاً عن الكتاب البديع الذي أشرف عليه مسعود يونس Kamal Joumblatt, Images d'un destin, والصورة أحياناً أوفى في معناها من ألف صفحة، لكنّنا نأمل المزيد من الدكتور يونس في توسيع لمقدمته المؤثرة بعلميتها وأناقتها.

هذه إذاً لمحة سريعة عن المؤلفات الحديثة حول كمال جنبلاط، نتساءل عن سرّ مثل هذا الإقبال الشعبي عليها، وقد كلّلها كتاب تيموفييف بنجاح لا مثيل له. ولا بدّ من التوقف عند أسلوبه العربي المتين، الذي يحبّي كلاً من المؤلف والمترجم لسلاسة لبنانية وعراقة نص تجعلان الكتاب وكأنه لم يترجَم قط. فعدا الأسلوب والدقة، ما سرّ هذا الإقبال الشغوف من قرّاء لبنانيين وعرب نعرف جميعنا أنهم توقفوا عن القراءة؟ وما معنى نجاح "كمال جنبلاط: الرجل والأسطورة" وإقبال الناس عليه جموعاً؟

بعض الجواب تحمله ثنايا الكتاب من المعلومات التي تجعله رفيقاً للقرن، فيشكّل السرد، من خلال سيرة الرجل، سجلاً لتاريخ لبنان في القرن العشرين، نختار منه فصلاً (هو الفصل السابع عن فترة الثورة البيضاء) غنياً بالمكنون المعبر عن مفاتيح السر التي نحن في صددها.

فالحقبة التي يهتم بها هذا الفصل هي الفترة الأولى لزعامة جنبلاط الوطنية، والتي أدّت الى استقالة رئيس الجمهورية في أيلول سنة ١٩٥٢. تنقسم معالجة الأحداث في هذا الفصل ثلاثة مواضيع تعمّنا، افتح أولها على "معمودية الدم"، وهي حادثة الباروك في ١٨ آذار ١٩٥١، أول لحظة دراماتيكية في العمل السياسي الجنبلاطي، والتي نتجت من انتشار الحزب الاشتراكي "كالنار في الهشيم"، ومن أول ردة فعل دموية من السلطة، أودت بحياة حمزة أبو علوان وفايز فليحان وملحم أبو عاصي من الحزب، كما مصرع الدركي بهيج شحوري، وهو الأداة السيّئة الحظ التي اختارتها السلطة لتواجه بالرصاص ما لا يمكن أبداً معالجته بالرصاص، وهو تجمع آمن من الأهالي دعماً لمعتقدهم، أكان هذا المعتقد غير مستساغ لأهل الحكم، أم كان غير محق أو غير ناجز في رأيهم.

تفصيلات الحادث ليست مهمة اليوم، لكن معاني التجمع أو التظاهرة، وكيفية الرد عليه من جانب السلطة هي باب القصيد. فهنا ملامح الجواب عن السؤال الذي بدأنا بطرحه عن سر الإقبال الشعبي العظيم على هذا الكتاب، لأن هذا الفصل بالذات، كما الفصول الأخرى بشكل متفاوت، يخاطبنا في يومنا الحاضر، يوم صعود المطلب الشعبي المسالم في قضايا مصيرية، وكيفيّة معالجة هذا المطلب من جانب سلطة لا تشترك في رسالته.

وليس من حاجة للإطالة، فتاريخ الثورة البيضاء معروف. إلا أننا، وفي هذه الحقبة الدقيقة من تاريخ لبنان، في أمس الحاجة الى "انسجام

الشموع والشعلة المضيئة"، والف
أيام الثورة البيضاء هي المعالم ال
ضمائرنا، والتي يوثقها ملياً هذا ال
التضحيات البشرية التي ازداد
عندما ترك الرئيس بشاره الخوري
مطواعاً، يجابه قارىء اليوم فصلا
تماسيل تتعلق بالرئيس الهجت
مطابقة لأعظم التحديات المطبقت
هذه المعاني نبذ العنف أسلوباً للتغ
ضرورة تفهّم السلطة لعدم جدوى
العنف أداةً في وجه المطلب الشع
كان هذا المطلب مغايراً لمصالح
ساستها.

وقد تتساءلون عن الشطط ال
موضوع "الآفاق الدولية لفكر كمال
شطط: فالشرق الأوسط مقبل ع
كثيرة، وعلى خلط الأولويات
والعراق وغيرها من الأقاليم الع
واحد، وهو جواب الآفاق الدولية
جنبلاط، في المحاولة المستمرة
أداة أولية للتغيير. بل هنالك بعد
المقبل علينا في هذه الأوقات الع
التعبير عنه في "اللغة الكمالية
الواقع والمتحول" بضرورة تقديم أ
على درب التغيير، وبالإرتكاز
العظيمة التي جسدتها الثورة البيض
فالآفاق الدولية المطلوبة هي
الأولوية في المطلب الجامع للسي
على أرض لبنان بعموم حكم الق
فيه، ويمثل عموم القانون في
هذه السيادة ومرادفها: لا قانو
القانون اللبناني، هذا هو المطلب
الآلية في التي خطتها الثورة
دينامية اللاعنف: هذه في رأينا ر
العالم العربي، والتي يؤديها ر
وتواصل، فيما تقرع طبول الح
الأوسط.

سوف نرى إذاً هل ينصف التاري
جنبلاط الدولية هذه المرة، وق
بل الآفاق الدولية في هذا ال
المحوري تحمّل أيضاً على جناح ا
لكاتب روسي قدير في يوميات
واهتماماته الفسيحة، فنرى في
البيضاء مشاهد ثلاثة: أولها
أوسطي، بدأ بمعمودية الدم
وانتهى برضوخ الحاكم للمطلب
في أيلول من السنة التالية. أما ا
فهو المشهد المعرفي في مقومات
الرحلة المادية والروحية التي ق
جنبلاط الى الهند في خريف سن
كلّ ما جاء في الفصل موثّق ب
الرحلة الطويلة برّاً حتى لقاء
الحاشدة مع الحزب الاشتراكي
المعلمين الهندوس، فنشأة "ال
التي تجسدت في ما بعد في
فقط في باندونغ، فالعالم أدرى
هذه القوة الثالثة التي قد
تيموفييف أدرك منبعها الأول.
ولا حاجة للإطالة في الآفاق الدو
جنبلاط في هذا الشق الثاني، و

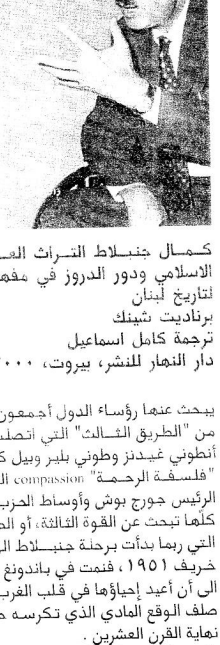

كمال جنبلاط التراث العربي الاسلامي ودور الدروز في مفهومه لتاريخ لبنان
برناديت شينك
ترجمة كامل اسماعيل
دار النهار للنشر، بيروت، ٢٠٠٠.

يبحث عنها رؤساء الدول أجمعون في عصرنا، من "الطريق الثالث" التي اتصلت بأسماء أنطوني غيدنز وطوني بلير وبيل كلينتون، الى "فلسفة الرحمة" compassion التي يناصرها الرئيس جورج بوش وأوساط الحزب الجمهوري. كلها تبحث عن القوة الثالثة، أو الطريق الثالث، التي ربما بدأت برحلة جنبلاط الى الهند في خريف ١٩٥١، فنمت في باندونغ ثم خمدت، الى أن أعيد إحياؤها في قلب الغرب المحتار أمام صلف الوقع المادي الذي تكرسه حضارته في نهاية القرن العشرين.

وأخيراً وليس آخراً، للآفاق الدولية في هذا الفصل السابع طريق إنساني متميز، يتكامل مع المنحيين الآخرين اللذين قدمناهما – المنحى التاريخي المعاصر في الثورة البيضاء ورسالة اللاعنف، والمنحى الدولي المتصل بالصوفية الهندوكية كما بـ"القوة الثالثة" عن طريق تراث غاندي ونهرو، وعن طريق الاشتراكية الدولية المتمثلة بالعرى الوثيقة التي حاكها معها كمال جنبلاط. هذا البعد الثالث يتجسد في الفصل السابع في رحلة الستّ نظيرة الأخيرة في ٢٤ آذار ١٩٥١، والحكمة الانسانية المؤثرة التي رافقتها عند كمال جنبلاط. يكتب تيموفييف:

"وداعاً يا ملكة الدروز، إسمك منحوت على رخام المختارة، والرحيل الذي نظمه شعراء الجبل الجوّالون، وكنّت تنشدينه عند مهد كمال، يغنيك ويقصدك آنت بالذات:

قصر المختارة، قصر المختارة من جَوّه لؤلؤ ومن برّه حجاره" (ص ١٨٥).

وليس شعراء الزجل وحدهم ينشدون عن طريق كمال ونظيرة سجلّ رجال لبنان ونسائه العظام، فهذه الرابطة التاريخية العميقة التي تجمع أهل الأدب والشعراء، كما كان كمال جنبلاط وكما قيل إن نظيرة كانت، في "سجل حي لحقبة خصبة من تاريخ لبنان"، هي البُعد الثالث الإنساني لتراث كمال جنبلاط الفريد الذي أحياه هذا الكتاب.

حسبنا هنا العودة الى هذه المقدمة الثالثة، فقد تكوّن أهم الآفاق الدولية الباقية في مساحة زمنية تعدّ بالقرون. فكما أن صداقة سيف الدولة وأبي الطيب المتنبي بقيت بعد ألف سنة جلّ ما يذكر من بطولات العهد الحمداني، حسبنا تلاق له وقع خاص في وفائنا لرجال أمتنا الكبار ونسائها، ومن أعظمهنّ الستّ نظيرة، حامية العرين، يقول عنها "شاعر الأرز" شبلي الملاط:

"تشتدُّ إن خَشَنَ الزمانُ وإن يَلِنْ
لانتْ كواحدةِ الظباء العينِ

عَصمَتْ نظيرةُ شبلَها ومهاتَها
بشمالِ ذاتِ مناعةٍ ويمينِ

وغذتْهما وكستْهما وسقتْهما
ما شئتَ من أدبٍ ومن تمدينِ

ويقول في البيت الجنبلاطي:

للجَنْبلاط سجيّةٌ خَلْقيّةٌ
قد نزّهتْ عن شبْهةٍ وظنونِ

ما طار فرخُ نسورهم إلاّ وفي
منقاده غُصنٌ من الزيتونِ»

والتلاقي الوطني اللبناني الذي حمله الى الخلود "شاعر الأرز"، أجاب به كمال جنبلاط في مهرجان ذكرى شبلي الملاّط عام ١٩٦١، فقال في خطاب مؤاساته: "... شبلي الملاّط في حياته وفي تصرّفه وفي شعره، قطعة من هذا التاريخ اللبناني الأصيل الحيّ الذي نحافظ عليه، في زوايا قلوبنا المطهّرة.

"... وشبلي وتامر وأسرتهما أصدقاء صدوقون، تربطنا بهم ألف علاقة، وتشدّنا أقوى الوشائج، حتى تكاد تكون العائلة واحدة.

"وقد ترعرع بعض آبائنا وعمومتنا وأولاد عمّنا في بعبدا وفي المختارة على مقربة وعلى اتّصال دائم..

"... رحم الله شاعر الأرز، وعزّى آله وذويه – ونحن منهم – وديوانه يظلّ سجلاً حيّاً لحقب خصبة من تاريخ لبنان. وحقبات هذا التاريخ لا تتجزأ" (وجدي الملاّط، شاعر الأرز، مدرسة التلاقي الوطني، مؤسسة الرعيدي، بيروت، ١٩٩٩ ص ٥٣).

* * *

لا يزال العالم المكومي اللبناني مقصّراً حيال كمال جنبلاط، وقد يكون بعض التفسير لرواج هذه الكتب ردّة الفعل الشعبية على هذا التقصير، وهي ردّة فعل الأوادم الذين لا يعرفون لماذا لا تزال المسؤولية غائبة عن تغييب كمال جنبلاط في ذاك النهار الأسود من آذار ١٩٧٧، كما هي مفتقدة في تغييب الإمام موسى الصدر، والرئيس رينه معوّض والكثيرين الكثيرين، من ليندا جنبلاط الى صبحي الصالح، وكلهم عرفناهم في لحظات مرّت كالبرق، فخطفهم التاريخ عنا وعن أحبابهم.

ولنا إن شاء الله موعد في حديث المسؤولية عن تغييبهم، وتغييب المئات الذين نجهل اسماءهم الغالية، في بلد حان له أن يعرف، كما عرفت الجمهورية الفرنسية على جبهة الـ Aux grands hommes la patrie Panthéon reconnaissante، أن أهم مقومات الأمّة يحملها رجالاتها ونساؤها العظام، كما في البعد الإنساني الثالث لآفاق كمال جنبلاط الدولية. أليس مأملت أشهر رجل في تاريخ الدانمارك كما يعرفه العالم؟ هذا البعد الإنساني يتألق في خلود الأدب من السيرة والكلام، الى جانب البعد التاريخي المعاصر في رسالة اللاعنف، والبعد الدولي المتمثل بالبحث الدائم عن طريق ثالث. وقد تشكل هذه العناصر الثلاثة بعض مفتاح السر الذي تعالجه هذه الكتب، كما يشيد به الإقبال العفوي الشامل على النهل منها ■

١– ايغور تيموفييف، كمال جنبلاط، الرجل والأسطورة، "دار النهار"، ٢٠٠٠

٢– Kamal Joumblatt. Images d'un destin. Préface de Masoud Younes, al-Masar, Beyrouth, 2000

٣– شوقي أبو لطيف، كمال جنبلاط والوظيفة الإجتماعية للفلسفة، بيروت، دار الحداثة، ٢٠٠٠.

٤– برناديت شينك، كمال جنبلاط، التراث العربي الإسلامي ودور الدروز في مفهومه لتاريخ لبنان، دار النهار، ١٩٩١ (الأصل الألماني Kamal Gunbulat, Das Arabisch-Islamische Erbe und die Rolle de Drusen in seiner Konzeption der Libanesischer Geschichte, Ber lin 1994.)